تقديم

جيورجيو كولي الباحث عن خلفية ولادة الفلسفة

بقلم د. عفيف عثمان

أخذ جيورجيو كولي Giorgio Colli (١٩١٧–١٩٧٩)[١] بنصيحة الفيلسوف الألماني هيغل في كتابه **ظاهريّات الروح** حين دعا إلى فحص معارفنا المشتركة وعدم التسليم بالأفكار الجاهزة. وعلى هذا النحو، باشر المفكر الإيطالي عملية «تقويض» (بالمعنى الهايدغري) للمقولات المعروفة عن الميتافيزيقا الغربية في سبيل تشييد أسسها بطريقة أفضل من خلال العودة إلى الفكر اليوناني. وهو بذلك وضع نفسه على الدرب المعادي للمقاربة الذاتية الذي رسمه شوبنهاور ونيتشه وهايدغر.

اتبع كولي منهجًا أطلق عليه أحد الباحثين الكنديين[١] مصطلح «تحليل ميتافيزيقي». إذ إنه انطلاقًا من مبادئ الاستنباط المثبتة في المنطق حاول العودة إلى المسلمات والشروط الميافيزيقية التي تجعل ممكنًا الجزءَ الوحيدَ الدقيق والعلمي من معرفتنا، أي القسم الاستنباطي الذي تحصّلت عناصره الأولى من دون برهان[٣]، مُتبعًا في ذلك كلمات هيراقليط (ولد حوالي العام ٥٤٠ قبل الميلاد وتوفي حوالي العام ٤٧٥ قبل الميلاد) الذي رأى أن الهدف الحيوي للفيلسوف هو في «شطر كل شيء وفقًا لطبيعته المتعالية». أي

تمييز الواقع في عناصره المكونة المنفصلة من خلال النسق الجوهري لكل شيء[٤]. وهو كعقلاني استخدم المنهج المنطقي الاستنباطي من دون الاعتقاد بإمكان إقامة نسق من المعرفة على طريقة هيغل.

يُبرز كولي في **ولادة الفلسفة** (نُشر في العام ١٩٧٥) اللغزَ [L'énigme] كمصدر للحكمة، إذ هو الظاهرة الأولية للحكمة الإغريقية، ويلمّح إلى الطبيعة الإلهية التي لا يمكن سبرها. ومهمة الحكيم أن يجعلنا على تماس مع اللغز الأصلي للآلهة. ولكن، مع إنشاء التعبير المكتوب، زال هذا التماس. وهذه القضية المعاصرة لبروز الجدل (فن النقاش) في اليونان ليست شيئًا آخر سوى تشكيل اللوغوس (*Logos*)، أداة التمثيل المجرد. يقترح كولي بسط هذه المسألة وأنسنَة اللغز الذي يصادف ولادة الحكماء. ففي الأزمان الأولى، ألهمت الآلهة الأنبياء – ردًّا على قلق الحياة – في شكل وحي إلهي (*oracle*)، وقد فُسّر هذا الجواب في سيَاق ديني تمامًا (عرّافات معابد دلفي ودودونا).

يطرح الإله لغزًا قاتلًا من خلال أبي الهول (*le Sphinx*)، فإما حلّه أو فقدان الحياة (انظر سوفوكليز: **أوديب ملكًا**). ومن أجل حله على كهينَين (مفرد كهين *devin*) أن يتواجها حتى الموت.

وفي عمله **بعد نيتشه**، كتب كولي: «اللغز لعبة يرقد العنف فيها، المناظرة عنف ترقد اللعبة فيها»[٥]. وجهده التأويلي بإزاء اللغز هو أيضًا مفتاح فلسفته في التعبير من وجهة نظر الباحث الإيطالي ماسيني: «العتبة الأورفية والديونيزية التي تبدأ منها الحكمة اليونانية، تمثل في الواقع محور فلسفة التعبير ذاتها المُدركة كتأمل حول اللغز، وهي بمثابة عدد نموذجي مثالي (*chiffre archétypique*)

وديونيزي لما لا يمكن سبر غوره، وبمثابة جوهر عميق لهذا البُعد (التفارق) الدائم، الذي به ولأجله تشكل التعبير»[٦].

إنّ سيَاق هذا الصراع الإنساني بحقّ، حتى لو أخذ طابعًا دينيًا، يتحول إلى منازعة يتولد منها الجدل اليوناني. وبحسب المفكر الإيطالي، وحدها اليونان توصلت إلى حرف الغرائز العدوانية عن دائرة الفعل، لتنقلها إلى دائرة الأفعال المجردة، ويُنسب النصر لا إلى الإنسان بل إلى اللوغوس[٧].

يُشير اللغز إذًا إلى أصل العقل ويُقدم نفسه كمصدر للجدل. واللغز كما الجدل، متناقض. يعني أن الاثنين مؤلفان من مقطعين من التحديدات المتناقضة، ما يُوجد اقتناعًا شبه تام بصلة قرابة وثيقة بين اللغز والجدل[٨]. ويقول كولي إن الكتابة والمنازعة والدمار هي سمة الجدل. والعصر الذهبي للحكمة اليونانية، كما بالنسبة إلى نيتشه، ينتهي مع أفلاطون (عاش بين ٤٢٧ قبل الميلاد و ٣٤٧ قبل الميلاد)، حين تُستبدل الدائرة الدينية بحب الحكمة، وهي ليست حكمة على الإطلاق، لأن الفيلسوف هو من لا يحوزها. ونلتقي خلال الفترة العتيقة «الحكماء اليونانيين» هؤلاء بممثليَ الحكمة. ففي القرن السابع والسادس قبل الميلاد، كان تعبير «صوفيا» (*Sofia*) يتضمن وظائف عدة في اليونان القديمة: شعراء، علماء، كُهان، معالجين؛ وقد عُد هؤلاء صنفًا فريدًا أطلق عليه اسم «صوفيا».

مُقتفيًا أثر نيتشه في **ولادة التراجيديا** (١٨٧٢)، حاول كولي بيان الصلة الحيوية ونسب القرابة القائمة بين أبولون (*Apollon*) وديونيزوس (*Dionysos*). وأراد من ذلك، في هيئة «ديونيزوس». وضع الفارق بين الحياة كواقع مطلق لا-زمني، والحياة الظاهرة

الخاصة بكل الأيام. وهذه الحياة المطلقة غير معروفة من أي ذات (أو فاعل *sujet*)، لكنها مُعطاة، أو تقدم نفسها لنا. تاريخيًا، ظهر الفاعل العقلاني في اللحظة التي اتبع فيها التمثيل (*la représentation*) التعبير، اللوغوس. إنها علامة الانحطاط. فالحكيم لا يفعل من جهته سوى استقبال الحياة.

والحال، يمثل ديونيزوس المعرفة التي تدرك الزمن والفضاء ومبدأ الفردَانيّة كمظاهر فحسب. لكن، قبل ديونيزوس كان أبولون مُمثلًا لرصانة يونانية أخرى. أبولون هو التعبير عن الدين وعن الحضارة، ما هو خارج عنا ومختلف عنا. وإلى هذا الإله تُحيل الشحنة الدينية لـ«اللغز». وعظمة الحكماء اليونان تكمن في أنهم حاولوا مصالحة هاتين الألوهتين: التقى أبولون وديونيزوس على أرض «المس» (الجِنبة *mania*) والانجذاب (أو الانخطاف *extase*). ولهذا لم يكن من قبيل المصادفة أن يُطلق عليهما لفظ «الشامان» (*Chamans*).

الفلسفة عند كولي نوع أدبي ولد مع أفلاطون، مبتدع الحوار (الذي هو بمثابة أدب) كوعي مخصوص من الجدل المكتوب ومن البلاغة المدونة التي تقدّم في إطار سردي محتويات النقاشات المتخيلة إلى جمهور غير متمايَز. وقد استمر هذا الشكل الكتابي بعد أفلاطون، وحتى تحول إلى مقالات (*traité*) تحوي موضوعات سياسية وأخلاقية. ورغم رفده بالبلاغة، بقي يُطلق عليه تعبير فلسفة. وشهدت هذه المرحلة الجديدة في الآن نفسه مرحلة كسوف عصر الحكمة (عصر الحكماء والسابقين على سقراط) – عصر الـ«صوفيا» (*Sophia*) المنقولة شفويًا.

إن مسألة ولادة الجدل واختفاء الحكمة تبدأ مع السابقين على سقراط، منذ القرن السادس والخامس قبل الميلاد. لكن هؤلاء استمروا ممثلين لهذه الحكمة نفسها. ومع طاليس (Thalès) (حوالي ٦٢٤–٥٤٧ قبل الميلاد) حدث في الأرض اليونانية الفتح العقلاني: إنشاء اللوغوس المجرد المنتصر. وقد جسد أبيمانيد (Epiménide)[٩] الذي هو في آن ممسوس (*mantis*) ومتنبِّئ (*Prophète*)، الانتقال من المس الانخطافي إلى الفكر الاستدلالي (*la pensée discursive*)، وكان أنكسيمندر (Anaximandre) (حوالي ٦١٠–٥٤٦ قبل الميلاد) أول من حاول تمثيل ما يدق عن الوصف بوساطة اللوغوس.

اعتبر كولي أنّ السابقين على سقراط لم يكونوا فيزيقيين (*des physiciens*) ولكن أصحاب نزعة باطنية أبولينية (*mystiques apolloniens*) لهم أصل ديونيزي. ومن خلال هذه التجربة الباطنية حاولوا محاكاة كل الواقع. وأرسطو (ولد حوالي ٣٨٤ قبل الميلاد وتوفي نحو ٣٢٢ قبل الميلاد) هو من وسمهم بالمادية في القرن الرابع قبل الميلاد بتسميتهم الحكماء «الفيزيقيين». والجدل الذي استخدم كمرشد في الفلسفة حتى اليوم، بدأ بحسب كولي مع أفلاطون، ونسبة ذلك إلى طاليس خطأ من أرسطو. ويتفق الباحثون على القول إن الفلسفة كفرع معرفي (*discipline*) لم تكن موجودة قبل أفلاطون، وتلاشت عظمة الحكمة مع أخذ الكتابة وسيلة لنقل المعارف بامتياز. إن إعادة إدراج الكتابة في اليونان نحو منتصف القرن الثامن قبل الميلاد مثّل انقلابًا ثقافيًا وسياسيًا. ووفقًا لكولي، تولدت الفلسفة كما العلم اليوناني من ذهنية الكتابة ومن إنشاء النصوص.

كل شيء في العالم، في رأي كولي، يُعبر عن شيء آخر، ومن خلال سبر طبيعة الأشياء نجول في درب التعبير باحثين في كل مرة عما يقف خلف الشيء وهو مُعبر عنه، وفي هذا السعي نحو الأعماق نصل إلى نقطة يستحيل علينا تجاوزها. وتظهر تعبيرات لا نعرف ما تعبر عنه، وهذه بدورها تحيلنا إلى شيء آخر، ولكن لا نعرف ما هو[١٠].

تبين لكولي إثر شوبنهاور أن العالم مكوَّن من عنصرين أساسيين: التمثيل والتعبير. هذه الفلسفة حكمة تجد ركيزتها في «التماس» (*«Pathos»* contact): لحظة وجودية لا تمييز خلالها بين الذات والموضوع، تُولد تمثيلًا جهويًا يضع اللغة جانبًا.

والتمثيل عند كولي «تذكر لسوابق سالفة» (*anamnèse*) والزمن تكرار أبدي (ما يشبه العود الأبدي في فلسفة نيتشه). التعبير لديه مثل «ترجيع أو مرآة – حيث الصور كما يقول أفلوطين 'تُلقي بنفسها في الزمن' – لشيء هو خارج الزمن»[١١]. والتمثيل الفائق، الذي هو ذكرى الأشياء المحتجبة أو تذكرها، يتسلل في التمثيل من خلال الطابع الدائري للتجربة المعرفية[١٢]. ذكرى الأشياء المحتجبة هذه «التي لم نراها ولم نمسك بها». كما يقول هيراقليط، نحملها في داخلنا. ويوضح كولي عبارة فيلسوف الصيرورة حيث المحتجب (المخفي) يدل في آن على الأساس الوحيد للعالم وأولوية الباطنية (*l'intériorité*) بالنسبة إلى الجسمية المتوهمة للعالم الخارجي[١٣].

في مقاربته لعظمة اليونان تبنّى كولي تصوَر «الأوبانيشاد» (*Upanishad*) الهندية والتفسير الذي تقدمه لمبدأ «*bhûman*»

حيث تكمن العظمة في الأنا، وهي كل ما يوجد، وليس في الثراء والغنى المادي. ففي عرفه تعود العظمة إلى الذات (الفاعل *le sujet*)، إلى داخلية الفرد وليس إلى موضوع المعرفة: الذات وحدها هي وعاء الحياة. وفي العظمة، فإنّ الحياة هي المُمثلة كجذر لتميز الفرد (*individuation*).

يرثي كولي زوال الحكمة وخسارة عظمة الفلسفة، والشفوية المستندة إلى الذاكرة، أي فقدان النزعة الباطنية (*mysticisme*) بالتحديد، والتي لم تكن عند اليونان نقيضًا للنزعة العقلية، ولكنّها مثّلت عندهم «مرحلتين متعاقبتين لظاهرة أساسية». كما يقول في كتابه **ولادة الفلسفة**. وتفترض العظمة تفاوتًا (لا مساواة) بين البشر، ومتحدًا ممتنعًا على الدولة، مُخاصمًا للسياسي والاقتصادي، أي إنّه إلهي، ديونيزي : «ديونيزوس مقطع الأوصال، مبعوثًا من جديد: وحدة إلهية تضم البشر المتفوّقين، بفصلهم عن الآخرين»[١٤]. ويتأسس هذا المتحد على السر، وعلى الغموض الذي يأخذ الحياة على أنها حلم، أسطورة، ويُناقض هكذا آنية الحياة وفوريتها المأخوذة على أنها حفظ النوع والفرد.

عمل جيورجيو كولي على نشر المعرفة الفلسفية طوال حياته، منذ ترجمة أرسطو (**الأورغانون**، ١٩٥٥) وكانط (**نقد العقل المحض**، ١٩٥٧) وحتى نشر شذرات الحكماء اليونانيين والأعمال الكاملة لفريدريك نيتشه (مع صديقه مازينو مونتيناري، ١٩٦٧–١٩٧٧). وعمل أيضًا في خدمة «فكرة عن العالم». حيث تُمارِس المعرفة ذاتها في إطار الحياة. ويلخص ذلك على نحو مقتضب ما كتبه في الأوراق التي نشرت بعد وفاته: «عليَّ أن أفعل شيئًا ما في الفن. أن

أكرس نفسي للذاكرة. أبتدع حياة آنية (فورية)»[١٥].

كان كولي حذرًا دومًا بإزاء التعبير عن المعرفة بوساطة الكتاب: «فإذا ما تكلم (الفيلسوف) عوضًا عن الكتابة، فلن يكون وحيدًا» ومقصده في شكل أساسي غموض الكتاب، ومن ثم يُضيف: «الآن، لدينا الكتاب، ولا يمكننا إلا أن نستخدم هذه المادة البديلة. وحتى علينا أن نستخدمه بحيث لا يكون شيئًا آخر غير مادة بديلة»[١٦].

غير أن عمله **ولادة الفلسفة** له وضع خاص، لأنه كُتب من أجل أن يُقال على موجات الإذاعة الإيطالية في العام ١٩٤٧ من ضمن سلسلة حلقات وافق كولي على المشاركة فيها. فهو إذًا كتاب «كلام مباشر» (على الهواء)، يذهب إلى الأساسي في الموضوع مُهملًا الهوامش والمراجع والتوضيحات.

وحين نشر كولي **ولادة الفلسفة** في كتاب (١٩٧٥)، قلب رأسًا على عقب رؤيتنا لهذا العالم القديم، إذ عد «الجنون مصدر الحكمة». وقد ذهب بنا بعيدًا في معارج الفكر العتيق ليثبت نظريته. فظهور الفلسفة مع أفلاطون أعلن بداية أفول الامتياز اليوناني الذي دام ما بين القرن السابع والقرن الخامس قبل الميلاد: «عهد الحكماء». وما أخذ مسمى الفلسفة منذ أفلاطون وبتعريفه، حمل في ذاته ومنذ البدايات سمة الحكمة وقد زال أثرها، أي قد ابتعدنا ونأينا عنها. مصادر الفلسفة اليونانية عنده غامضة، وغير مؤكدة عنده تلك الصلات التي تربطها بلقاءات أسطورية مع الثقافات الشرقية والفكر المصري والفكر الهندي.

يُطلق أفلاطون كلمة فلسفة «حب الحكمة». على مسار بحثه الخاص ونشاطه التعليمي المرتبط بالتعبير المكتوب وبالشكل الأدبي

للحوار. يتوجه أفلاطون بتقدير نحو الماضي، نحو عالم «الحكماء» الذين عاشوا فعليًا، وهو ينظر إلى حب الحكمة كانحطاط، كشيء أدنى من الحكمة. ومن الخطل الكلام عن استمرارية ما أو عن تجانس بين الحكمة والفلسفة. لذا، يبحث كولي لدى الآلهة أبولون وديونيزوس ولدى إله دلفي ولدى هيراقليط وبارمنيدس عن «الحكمة اليونانية». وعند عتبة الانتقال إلى الفلسفة التي تأكدت سلطتها مع الانتقال إلى الكتابة، جرى التخلي عما يُسمى «الحكمة اليونانية».

وفي تركيزه على هذه الأخيرة أراد كولي أن يتوجه إلى أولئك الذين لم يُقاربوا سلك الفلسفة بعد ليقوي عزيمتهم على ارتياده بالرجوع في الزمن إلى الوراء لرؤية الخلفية التي ساهمت في «ولادة الفلسفة».

د. عفيف عثمان